الخطاب قوة المصطلح و المنظومة المفاهيمية

د/ حمدي منصورجودي
جامعة محمد خيضر- بسكرة .

توطئـــة:

اللغة "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[1]، وهي أداة التبليغ بين الأفراد في مختلف المواقف التواصلية، قصد التعبير عن حاجاتهم ومقاصدهم، وبذلك أضحت اللغة موضوع بحث ودراسة، تشترك فيه الكثير من العلوم لإبراز حقائقه وقوانينه الضابطة له. وهذا الاشتراك كان سببا في تنوع مجالات الدراسة وتعدد اتجاهاتها ومدارسها، وتفرّع مناهجها ونتائجها؛ بين رؤية لسانية، ورؤية اجتماعية، وأخرى نفسية. فكان نتاج هذا كله كثرة المصطلحات والمفاهيم واختلاف واضح بين المدارس والاتجاهات اللغوية. وقد ظهر هذا الإشكال جليا فيما يعرف بـ : (علم النص Grammaire de texte) أو (لسانيات النص Linguistique de texte)؛ "إذ استقى أكثر أسسه ومعارفه من علوم أخرى تتداخل معه تداخلا شديدا، حيث يمكن أن يشكّل أدواته في حرية تامة، ثم تصبّ كل نتائج تحليلاته في هذه العلوم"[2] كالفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس. وهذا الارتباط المعرفي أدى بالباحث إلى محاولة إيجاد منظومة مفاهيمية متقاربة ومشتركة بين المدارس والاتجاهات اللسانية، سواء على مستوى المصطلح والمفهوم أو على مستوى المنهج المعتمد " فاختيار مفهوم من بين عشرات المفاهيم غاية في الصعوبة، وليت الأمر ينتهي عند هذا الحد؛ فقد امتدّت الصعوبة كذلك إلى المعايير التي تتحقق بها النصية "[3].

وسعيا لتحديد مفهوم الخطاب Descours وجب الإشارة إلى مفاهيم سابقة له وفق تراتبية زمنية، ساعدت على تكوين وإيجاد هذا المفهوم هي : الجملة Phrase، التلفظ Enonciation والملفوظ Enoncé، النص Texte.

1-مفهوم الجملة :

1-1-عند العرب: اعتمد الأوائل من نحاة العرب مصطلح الكلام بديلا عن مصطلح الجملة في أعمالهم، لأن" الجملة مصطلح نحوي ظهر متأخرا في مؤلفات النحاة، إذا قارناه بمصطلحات أخرى، أما مفهومها فكان بديلا عنها مصطلح الكلام الذي شاع في جميع العصور"[4]، وقد أورد سيبويه(ت180هـ) مصطلح الكلام في مؤلفه(الكتاب) دون أن يورد مصطلح الجملة، و" هذا أمر غريب آخر ألا يوجد أي أثر للكلمة "جملة" في كتاب سيبويه، وكذلك العبارة "جملة مفيدة" لا أثر لها في الكتاب"[5]، لأن سيبويه يرى أن الكلام ما يستقل بلفظه ومعناه، ويحسن السكوت عنده، وكأنه بذلك يسوّي بين الكلام والجملة دون أن يغفل فارقا جوهريا يميز ذلك المفهوم باعتباره بنية نحوية مستقلة عن بقية البنى النحوية الأخرى، واعتباره حدثا تواصليا في سياق ما، مما يجعله أقرب إلى مفهوم الخطاب في اللسانيات الحديثة. ويعد المبرد(ت285هـ)" أول نحوي تحدث عن الجملة بصراحة في كتابه"[6]، رغم أنه يسوّي بينها وبين الكلام، وقد تبعه بعد ذلك ابن السرّاج(ت 316هـ) الذي يرى أن"الاسم الذي يرتفع بأنه فاعل هو والفعل جملة يستغني عليها السكوت، وتمت بها الفائدة للمخاطب"[7]، وبهذا يعدّ الجملة أساسا في تركيب الكلام الذي تحصل به فائدة عند التبليغ. وقد سار على هذا المنوال بعد ذلك كل من عبد القاهر الجرجاني(ت471هـ)، والزمخشري(ت538هـ)، وابن يعيش(ت643هـ)، فالزمخشري مثلا يرى أن الكلام هو" المركب من كلمتين أسندت إحداهما إلى الأخرى، وهذا لا يتأتى إلا في اسمين أو فعل واسم، ويسمى الجملة"[8]، فمهما كانت البنية النحوية للجملة فهي –عنده- كلام تحدث به فائدة في موقف تواصلي.

غير أن النحويين المتأخرين بعد ذلك قد ميّزوا بين الجملة والكلام، فالرضي الأستراباذي (ت686هـ) يرى أن" الجملة ما تضمن الإسناد الأصلي سواء كانت مقصودة لذاتها أو لا كالجملة التي هي خبر المبتدأ"[9]، وأما الكلام –عنده- فهو" ما يضمن الإسناد الأصلي وكان مقصودا لذاته، فكل كلام جملة، ولا ينعكس"[10]، وبهذا فالكلام أشمل من الجملة، وهي جزء من تركيبه؛ فالخبر إذا كان جملة يتم إسنادها إلى المبتدأ فينشأ كلام تحدث به فائدة عند التبليغ.

وعموما يمكن القول أن نظرة النحاة العرب للجملة كانت نظرة نحوية، تركز على بنيتها وإسنادها في مدرج الكلام، وبمعزل عما تؤديه هذه البنية النحوية من وظيفة أثناء التبليغ في مواقف تواصلية مختلفة، حجتهم في ذلك أن هذه الوظيفة التبليغية هي من صميم الدرس البلاغي الذي يربط البنية النحوية للجملة مع ما يتجاور معها من بنى نحوية أخرى تشكل كلاما تحدث به فائدة في مواقف تواصلية مختلفة.

1-2- عند الغرب:

لقد كان كتاب (دروس في اللسانيات العامة Cours de linguistique Générale) لفرديناند دي سوسير F. De .Saussure (1857-1913) فتحا جديدا لظهور ما يعرف باللسانيات البنوية Linguistique Structurale، إذ عرض فيه قواعد وضوابط الدرس اللساني الحديث، وأوجد مصطلحات ومفاهيم أضحت أساسيات في البحث اللساني، فقد اعتبر سوسير اللغة Langage نظاما Systéme من الرموز، تبرز في شكل ثنائية الدال Signifiant والمدلول Signifie، وتنشأ بينهما علاقة عند نقل الأفكار على مستوى اللسان Langue المشترك بين الأفراد، أما الكلام Parole فيمثل التجسيد الفعلي والتأدية الواقعية لذلك اللسان، وقد وضح سوسير أن دراسة اللغة تعتمد على جانبين؛ اتجاه آني Synchronique يصف اللغة وصفا علميا، واتجاه تاريخي Diachronique يهتم بالتغيرات التي تحدث للغة عبر الأزمنة. إلا أنه ركز على الاتجاه الأول (الآني)، وأبعد الكلام عن الدراسة، واعتبره خارجا عن القوانين الداخلة في تركيب اللغة، لأنه مرتبط بتأدية الفرد

وهو المتحكم فيه[11]، و" لم يلتفت دي سوسير ولا البنويون الذين جاؤوا بعده إلى هذا المظهر الهام، والذي منعهم من ذلك هو اعتقادهم بأن كل ما خرج عن بنية الألفاظ المفردة ونظامها فهو راجع إلى الفرد، فالجملة مثلا بما أنها تركيب لوحدات اللغة يقوم به الفرد، فليس عندهم "لسانية" أي وصفية، بل "كلامية " أي من جنس الأفعال الفردية لا من جنس المقدرات اللغوية "[12].

ثم جاءت بعد البنوية اللسانيات الوظيفية Linguistique Fonctionnelle، التي ركزت في دراستها للغة على الوظيفة التي تؤديها بوصفها أداة تبليغ تظهر فيها آثار الوسائل التعبيرية لاختيارات المتكلم أثناء التواصل، وامتدت هذه الدراسة لتشمل " الدراسات النحوية لينشأ عندئذ النحو الوظيفي"[13]. وقد رأى أندري مارتيني A. Martinet أن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل، وعدّها " مؤسسة إنسانية يرتدّ كيانها إلى المجتمع الذي يتكلمها "[14]. كما رأى أيضا أن الجملة تتألف من نواة Nayau وفضلة Expansion، فأما النواة فتشكل التركيب الإسنادي Syntagme Prédicatif الذي يتألف بدوره من مسند Prédicat ومن مسند إليه Sujet وهما" وحدتان متلازمتان أبدا "[15] داخل الجملة، وحذفهما يؤدي إلى خلل في معنى هذه الجملة، وأما الفضلة في الجملة فيمكن الاستغناء عنها إذا حدثت الفائدة عند المخاطِب أثناء التبليغ. وعليه فإن النحو الوظيفي Grammaire Fonctionnelle ينظر إلى الجملة من حيث تركيبها ودلالة مكوناتها، وإلى الوظيفة التي تؤديها هذه المكونات انطلاقا من مستويات التحليل اللغوي.

هذا عن الجملة في المنظور الأوربي، أما بالنظر إلى الرؤية الأمريكية فقد ظهر اتجاه لساني سنة 1930، يتعلق بعلم النفس السلوكي Behaviorisme عرف باللسانيات التوزيعية Linguistique Distributionnelle، حاول أصحابه توظيفه في الدراسات اللغوية، ورأوا أن" الفروق بين البشر محكومة بالبيئة التي يعيشون فيها، وأن كل سلوك هو ردّ فعل"[16]، والكلام سلوك فردي؛ فالمتكلم يصدر أصواتا تحت تأثير ظرف معين يدعى منبه Stimulus يتطلب استجابة Réponse من المتلقي تعدّ ردّ فعل Réaction لذلك، لهذا فالبحث اللساني التوزيعي ينظر إلى قاعدة : (الأصوات + منبه = استجابة)

عند التحليل اللغوي بإبراز" العلاقة الموجودة بين المجموعة الصوتية المتعاقبة"[17]، ثم تحديد المنبه الذي يتطلب استجابة من المتلقي، ويتم ذلك بجمع مدوّنة كلامية Corpus تمثل جمل اللغة المتحققة أثناء التبليغ، ثم تقطيعها إلى وحدات تخضع للوصف والإحصاء، دون التركيز على المعنى وعلى المعطيات الدلالية والسياقية، وهذا ما دعا إليه كل من بلومفيلد Blomfield وهاريس Harres أثناء التحليل التوزيعي لمدونة الكلام "بإبعاد كل اعتبار معنوي عن الوصف اللساني "[18]، مما جعل اللسانيات التوزيعية لا تتعدى حدود الشكل اللغوي للجملة.

ثم ردف التوزيعية اتجاه لساني أمريكي آخر، أسسه نوام تشومسكي N.chomsky وهو ما يعرف باللسانيات التوليدية التحويلية Linguistique Générative et Transformationnelle فقد " أقامها على أساس نقدي "[19] للنظريات البنوية، ورأى أن البنوية " لا تميّز بين المناهج التحليلية وبين موضوع تحليلها " [20]، فلم تخرج بذلك من دائرة الوصف وتحليل الوحدات المكونة للغة إلى تحديد المركب التركيبي Composante Syntaxique الذي يساعد على صياغة التحليل في شكل قواعد علمية مرتبة، لتوليد عدد لا متناه من الجمل دون الرجوع إلى لغة ما. لأن الفرد في نظر تشومسكي يملك قدرة على إيجاد جمل لا متناهية العدد، لم يسمعها ولم ينطق بها من قبل في سياقات كلامية مختلفة، وبهذه النظرة تحوّل مجال البحث اللغوي من الوصف والإحصاء إلى الاستنتاج والتجريب، رغم أنه لم يتعدّ دراسة مستويات الجملة (الصوتي،الصوفي،المعجمي،الدلالي،التركيبي) بمعزل عن سياقها اللغوي وعن ظروف التبليغ.

إن فصل الجملة عن سياقها اللغوي وعن ظروف إنتاجها أثناء التواصل هو ما جعل اللسانيات الغربية بمختلف مدارسها ومناهجها محصورة داخل بنية الجملة ذاتها، فلم تتجاوز حدود الوصف وأضحت أكبر وحدة قابلة للتحليل، مفصولة عن العوامل الاجتماعية والتبليغية (اللغة،الثقافة،الشخصية)[21] التي تساهم في تحديد مقاصد المتخاطبين في مختلف المواقف والسياقات التواصلية.

2-التلفظ والملفوظ : Enonciation / Enoncé

لقد عجزت لسانيات الجملة عن حل الكثير من الإشكالات في الدرس اللغوي الحديث، وهذا ما تطلب رؤية جديدة تتعدى حدود الجملة، وتربط عملية التواصل بسياقها اللغوي والاجتماعي والثقافي وبعناصر التواصل وأطرافه، وقد دعا بيرس Beirce إلى" تناول الدليل اللغوي في أبعاده الثلاثة"[22]، المتمثلة في البعد التركيبي والبعد الدلالي والبعد التداولي الذي يربط من خلاله بين الدليل اللغوي ومستعمله ومؤوله في موقف تواصلي محدد. ثم تبعه هاريس Harres في هذا المسعى داعيا إلى" توزيع العناصر اللغوية في النصوص، والروابط بين النص وسياقه الاجتماعي"[23]، فظهر عنده مفهوم جديد تمثل في الملفوظ Enoncé، وهو " كل جزء من الكلام يقوم به المتكلم، وقبل هذا الجزء وبعده يوجد صمت من قبل المتكلم"[24]، إلا أن الملاحظ في هذا التعريف تداخله مع مفهوم الجملة، لأنها أيضا جزء من الكلام تتم به فائدة معينة، وهي مستقلة عن التراكيب السابقة واللاحقة لها.

أما إميل بنفينيست E. Benveniste فيرى أن التلفظ Enonciation هو" وضع اللغة في حركة بمقتضى فعل فردي في الاستعمال "[25]، وهذه الحركة تمثل التجسيد الفعلي والعملي للغة، على اعتبار أنها مجموع الأفكار والتصورات الموجودة في ذهن المتكلم التي تتحوّل بعد فعل التلفظ إلى ملفوظ، وبهذا يصبح الملفوظ مجموع الوقائع الكلامية أو اللغوية التي يقوم بها المتكلم من أجل التمثيل الجزئي للتلفظ المرتبط بعملية إحداث الكلام، فهو على هذا الأساس" فعل حيوي "[26] يحدثه المتلفظ لإنتاج نص أو خطاب، له بداية ونهاية، وينفصل عن ذات المتلفظ (المتكلم)بعدما يتم إنجازه، مما يجعل التلفظ مرتبطا باللغة المنطوقة، أما الملفوظ فيتعلق باللغة المكتوبة وهو يقابل النص المنجز. وقد فرّق بنفينيست بين الجملة والملفوظ، فعدّ الجملة " لا تشكّل في صلب ملفوظ أكبر سوى وحدة صغرى للخطاب، ومع الجملة نبرح ميدان اللغة بوصفها نظاما من الأدلة، ونلج عالما آخر هو اللغة بوصفها أداة للتخاطب التي تتجلى في الخطاب "[27]، فتصبح الجملة وحدة صغرى تتجاور مع وحدات صغرى لتشكّل صورة الخطاب Discours عند إميل بنفينيست، وحدد مفهوم

الخطاب على أنه" الملفوظ المنظور إليه من جهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل"[28]، كما أنه "كل تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[29]، فالخطاب ملفوظ مرتبط باللغة المكتوبة انطلاقا من آليات التواصل وما يقتضيه من استعمال للدليل اللغوي المتواضع عليه، فهو نص بوصفه ملفوظا. كما يعدّ الخطاب تلفظا مرتبطا باللغة المنطوقة، يتطلب طرفين هما المتكلم والمستمع Locuteur/Auditeur، كما يتطلب هدفا تأثيريا أثناء التخاطب يتم بآلية وكيفية محددة. وهذا ما جعل بنفينيست يركز في موضوع الدراسة اللغوية على التلفظ أكثر من الملفوظ؛ لأن التلفظ يبرز أحوال المتكلم والمستمع وأحوال السياق المصاحب لعملية المشافهة. وهذه الحقيقة قد أشار إليها علماء العربية منذ القديم في دروس البلاغة العربية عند تحديد " دور المتكلم وتصرفاته بحسب أغراضه وبمقتضى الحال وأحوال السامع"[30]، إلا أن تركيزهم على دراسة الجملة بوصفها بنية نحوية مستقلة عما يجاورها من بنى نحوية أخرى هو ما أبعد هذه الحقيقة .

وبالنظر إلى ما طرحة إميل بنفينيست حول مفهوم التلفظ والملفوظ وكذا النص والخطاب، واعتبار الخطاب ملفوظا وتلفظا في آن واحد، وارتباطه باللغة المكتوبة ولغة المشافهة، فإن هذا الأمر قد طرح إشكالا تمثل في التداخل المفاهيمي بين الخطاب والنص وآليات اشتغال كل منهما.

3-النص: Texte

أ/ لغة: النص" رفعك الشيء، ونصُّ الحديث رفعُه، وكل ما أُظهر فقد نُصَّ، وقال عمرو بن دينار: ما رأيت رجلا أنصّ للحديث من الزهري أي أرفع له وأسند [..] ونصّت الظبية جيدها: رفعته [..] ووضع على المنصة أي على غاية الفضيحة والشهرة والظهور[..] والمنصة: ما تظهر عليه العروس لترى [..] ونصّ المتاع نصّا: جعل بعضه على بعض، ونصصت ناقتي: رفعتها في السير [..] وأصل النص: أقصى الشيء وغايته[..]ونصُّ كل شيء منتهاه "[31]، والنص" الإسناد إلى الرئيس الأكبر ونصص غريمه وناصّه استقصى عليه وناقشه "[32]. لهذا فالمعاني المعجمية للنص تنصب في مفاهيم هي : الرفع والإظهار والاستقصاء وبلوغ نهاية الشيء وأقصاه والإسناد.

ب – **اصطلاحا:** تعددت تعريفات النص وتباينت بين العلماء، وهذا راجع إلى خلفياتهم المعرفية ومناهجهم العلمية وبخاصة اللسانيين الغربيين، فقد رأى بول ريكور .P Recoeur أن النص" خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة "[33]، أما شلوميت Shlomete فترى أن النص يحمل معنى" الخطاب الشفوي أو الكتابي، أو بمعنى آخر هو ما نقرأ"[34]، لأن القراءة لا تكون إلا لما هو مكتوب، وبالنظر إلى هذين التعريفين فإن مفهوم النص مرتبط باللغة المكتوبة، في حين يرتبط الخطاب بلغة المشافهة. أما جوليا كريستيفا J. Kristeva فتعدّ النص" جهازا شبه لساني يعيد توزيع نظام اللسان عن طريق ربطه بالكلام التواصلي، راميا بذلك إلى الإخبار المباشر مع مختلف أنماط الملفوظات السابقة والمعاصرة "[35]، وهذا التعريف مرده إلى طبيعة إنتاجية النص Productivities، لأنه يوضح العلاقة الموجودة بين اللسان والكلام في موقف تواصلي ما، عن طريق استعمال ملفوظات مأخوذة من نصوص لا تمثل النص الأصلي وهو ما يعرف بعملية التناص Intertextuality، بمعنى أن النص يمثل "عملية استبدال من نصوص أخرى "[36]. في حين فإن رولان بارث R. Barthes يشبه النص بنسيج العنكبوت، ويرى أنه" نشاط وإنتاج، يتكون من نقول منتظمة وإشارات وأصداء لغات وثقافات عديدة "[37]، هذا الإنتاج يتطلب مشاركة القارئ التي" تتضمن القطيعة بين البنية والقراءة [..] فممارسة القراءة إسهام في التأليف"[38]، وبالتالي فإن نشاط القارئ لا يتمثل في قراءة النص بل يتجاوزه إلى مجال تركيب نص من عدة نصوص سابقة له، ممهدا الأمر لإنتاج نصوص لاحقة.

وتجدر الإشارة إلى أن الدكتور محمد مفتاح قد سعى إلى بناء تعريف جامع انطلاقا من مجموعة تعريفات مختلفة من حيث المنطلقات العلمية، فهو يرى أن النص" مدوّنة حدث كلامي ذي وظائف متعددة "[39]، لأنه مرتبط بالكتابة وبالسياقات الاجتماعية والنفسية والتاريخية واللسانية التي ساعدت على إنتاجه لتأدية مجموعة من الوظائف أثناء التواصل. وهذه الوظائف حددها رومان جاكبسون R. jakobson انطلاقا من مخطط التواصل[40]،على النحو الآتي:

السياق

المرسل ← الرسالة ← المرسل إليه

قناة التواصل

القانون

وقد رأى جاكبسون أن وظائف الكلام أو اللغة Fonctions de la Lange تتمثل في الآتي[41]:

1- **الوظيفة المرجعية (السياقية)** Fonction Référentielle وتتعلق بالسياق Contexte الذي تتم فيه عملية التواصل.

2- **الوظيفة التعبيرية (الانفعالية)** Fonction Expressive وتحدد أثر المرسل وتعبيره المباشر أثناء التواصل .

3- **الوظيفة الانتباهية** Fonction Phatique وتمثل الآليات المعتمدة لشدّ انتباه المرسل إليه أثناء التخاطب.

4- **الوظيفة الإفهامية** Fonction Conative وتتعلق بالمرسل إليه وقدرته على تحديد فحوى رسالة التخاطب.

5- **الوظيفة ما وراء لغوية** Fonction Meta- linguistique وتبرز وعي المرسل والمرسل إليه في استعمال قانون الخطاب.

6- **الوظيفة الشعرية (الإنشائية)** Fonction Poetique وتمثل الملفوظ في بنيته المادية، وهي أهم وظيفة في التواصل، وقد اعتبرها جاكبسون نص الخطاب.

وقد أكد ديفيد كريستال D.Crystal على" الامتداد في النصوص، وكونه منطوقا أو مكتوبا، ثم على الوظيفة الاتصالية "[42] التي يؤديها النص؛ لأنه سواء كان كلمة أو جملة أو متتالية من جمل كثيرة تجمع بينها روابط شكلية أو دلالية لا بدّ من توفر السياق الذي يوضح دلالة هذا النص. أما هاليداي Halliday ورقية حسن R.Hasan فإنهما يريان أن كلمة النص" تستخدم في علم اللغة للإشارة إلى فقرة منطوقة أو مكتوبة، مهما طالت أو امتدت [..] والنص هو وحده اللغة المستعملة، وليس محددا بحجمه، والنص يرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة"[43]، لأن المغزى هو معرفة دلالة النص بغض النظر عن حجمه وطوله، وهذا بتحديد الوظيفة الدلالية التي يؤديها في سياق اجتماعي وثقافي معين، علما أن هذه الوظيفة الدلالية تتمثل في اللغة. فالنص هو" اللغة التي تخدم غرضا وظيفيا؛ أي هو اللغة التي تخدم غرضا في إطار سياق ما، وقد يكون النص منطوقا أو مكتوبا "[44].

وبالنظر إلى جملة هذه التعريفات فإن النص يرتبط باللغة المكتوبة كما يرتبط باللغة المنطوقة، وهذا من شأنه أن يحدث تداخلا بينه وبين الخطاب، لهذا دعا فان دايك Vandyik إلى ضرورة إعادة بناء الأقوال انطلاقا من نظرية أدبية محددة تكون"على شكل وحدة أكبر من الجمل وهي النص، ويعني به البناء النظري التحتي المجرد لما يسمى عادة خطابا"[45]، وميّز فان دايك بين النص والخطاب، فقد رأى أن الخطاب" هو في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي ونتيجته الملموسة والمسموعة والمرئية، بينما النص هو مجموعة البنيات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه"[46]، بمعنى آخر" الخطاب هو الموضوع المجسّد أمامنا كفعل، أما النص فهو الموضوع المجرد والمفترض"[47]. ولهذا رأى فان دايك أن النص يتضمن الخطاب، وإذا تمّ تجسيد النص في موقف وسياق تواصلي محدد يعدّ خطابا، لأنه سيقترن بالتلفظ الآني الذي يحمل دلالة معينة، تتفاعل معها أطراف الخطاب، داخل سياق اجتماعي وثقافي يحيط بهذه الأطراف.

4- الخطاب: Discours

أ/**لغة:** جاء في المعجم " الخطاب والمخاطبة مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا[..] والخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخاطب على المنبر[..] واسم الكلام الخطبة (وهي) الكلام المنثور المسجّع ونحوه[..] والخطبة مثل الرسالة التي لها أول وآخر"[48]، وهي بذلك لا تخرج عن مجال دلالة الكلام ومفهومه.

ب- اصطلاحا: لقد ورد استعمال لفظ الخطاب عند العرب بالنظر إلى تراثهم القديم في ثلاثة مجالات هي: القران الكريم، وعند أهل النحو، وعند الأصوليين؛ ففي القران الكريم ورد لفظ الخطاب في أكثر من موضع، سواء بصيغة الفعل أو بصيغة المصدر، نحو قوله تعالى : "وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا"[49]، وقوله: "وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ"[50]، وقوله: "وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ "[51]، وقوله: "رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لاَ يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا"[52]. ففي هذه الآيات البيّنات قُرِنَ مفهوم الخطاب بالكلام، على اعتبار أنه تأدية فردية ونشاط ذو فعالية آدائية ذاتية من المتكلم الذي له مقاصد محددة أثناء التبليغ.

أما عند النحويين العرب فقد ورد لفظ الخطاب بصيغة اسم المفعول (المخاطَب)، وهذا " للدلالة على طرف الخطاب الآخر، الذي يوجه المرسِل كلامه إليه "[53]. كما ورد عند الأصوليين بصيغة اسم الفاعل (المخاطِب) واسم المفعول (المخاطَب)، وهذا قصد الدلالة على طرفي الخطاب، وقد عرّفه الآمدي بأنه" اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو مُتَهَيِّءٌ لفهمه "[54]، بمعنى أنه يقرن مفهوم الخطاب ببنية الألفاظ المتواضع عليها، دون النظر إلى ما يحيط بهذه البنية من أحوال ومقتضيات.

هذا عند العرب قديما، أما بالنظر إلى علماء الغرب فإن لفظ الخطاب قد ظهر عندهم في الدراسات اللسانية الحديثة، وقد اختلفوا حول مفهومه وتعريفه تبعا لمنطلقاتهم العلمية واتجاهاتهم اللسانية، كما تباينوا أيضا في التفريق بينه وبين النص؛ فمنهم من يرى تطابقا مفاهيميا بينهما، ومنهم من يرى عكس ذلك، فإميل بنفينيست يعرّف الخطاب على أنه" الملفوظ المنظور إليه من جهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل"[55]، لهذا ارتبط الخطاب عنده باللغة المكتوبة وعدّه نصا له دلالة معينة بين مستعملي الدليل اللغوي المتواضع عليه، كما

رأى – في الوقت ذاته – أن الخطاب" تلفظ يفترض متكلما ومستمعا، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"[56]، مما يستدعي ارتباط الخطاب باللغة المنطوقة قياسا بطرفي التواصل (المتكلم والمستمع). أما رومان جاكبسون فيرى أن الخطاب" نص تغلبت فيه الوظيفة الشعرية للكلام، وهو ما يفضي حتما إلى تحديد ماهية الأسلوب لكونه الوظيفة المركزية المنظّمة"[57]، ودراسة الأسلوب ترتبط غالبا بالنص وبشكله وببنيته، فالخطاب عند جاكبسون هو نص. ونجد الأمر ذاته عند رولان بارث الذي يرى تطابقا بين الخطاب والنص، فالنص عنده" يظلّ على كل الأحوال متلاحما مع الخطاب، وليس النص إلا خطابا، ولا يستطيع أن يتواجد إلا عبر خطاب آخر"[58]. وقد رأت جوليا كريستيفا أن" النص الأدبي خطاب يخترق حاليا وجه العلم والايديولوجيا والسياسة"[59]. ومن الذين حاولوا الفصل بين الخطاب والنص عند الغرب روجر فاولر R.Fawler، إذ يعتقد أن الطبيعة الوظيفية لكل منهما من شأنها أن تميّز الخطاب عن النص، وأنّ "معالجة الأدب بوصفه خطابا معناها النظر إلى النص بوصفه علامات بين مستخدمي اللغة، ليس فحسب علاقات الكلام، بل أيضا علاقات الوعي والايديولوجيا والمساهمة والطبقة، إذ لا يعود النص شيئا، بل يغدو فعلا أو عملية "[60] تتطلب نشاطا بين طرفيه، في موقف تواصلي، أي أن النص داخل هذا الموقف يتحول إلى خطاب بوصفه فعلا تبليغيا.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار إلى أن العرب المحدثين قد حاولوا التفريق بين مفهومي الخطاب والنص، ومنهم سعد مصلوح الذي يرى أن الخطاب" رسالة موجّهة من المنشئ إلى المتلقي، تُستخدم فيها الشفرة اللغوية المشتركة بينهما، ويقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموع الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكوّن نظام اللغة (الشفرة) المشتركة، وهذا النظام يلبي متطلبات عملية الاتصال بين أفراد الجماعة اللغوية، وتتشكّل علاقاته من خلال ممارستهم كافة ألوان النشاط الفردي والاجتماعي في حياتهم "[61]، فالخطاب رسالة تربط طرفين بينهما علاقة ودليل لغوي مشترك، وهي من مقتضيات التواصل. أما النص فينحصر داخل المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تؤلف نظام اللغة، وبهذا يرتبط الخطاب قياسا بطرفيه (المنشئ والمتلقي) بما هو منطوق من هذه اللغة. وهذا ما ذهب إليه طه عبد الرحمن في هذا الصدد، إذ عدّ الخطاب" كل منطوق

به موجّه إلى الغير بغرض إفهامه مقصودا مخصوصا "[62] يسعى من خلاله المتكلم إلى التواصل مع المتلقي، باعتماد اللغة المنطوقة لما تظهره من مقاصد هذا المتكلم تبعا للظروف المحيطة بالخطاب.

خلاصة: (بين الخطاب والنص)

إن الفصل بين مفهومي الخطاب والنص راجع إلى طبيعة الثقافة العلمية وإلى الزاد المعرفي والتوجّه اللساني الذي يفرض نفسه على الباحث، بالرغم من بقاء الإشكال قائما في هذا الشأن، إلا أن محاولة التمييز بينهما قد تكمن في مجموعة نقاط هي:

- إن الخطاب مرتبط باللغة المنطوقة، أما النص فهو نتاج اللغة المكتوبة لأن" اللغة الشفوية تنتج خطابا، بينما الكتابة تنتج نصوصا، وكلاهما يحدد بالرجوع إلى القناة التي يستعملها "[63] الخطاب أو النص.

- إن الخطاب يتطلب متكلما ومستمعا أثناء التواصل، أما النص فيتطلب منتجا (ناصّا) ومتلقيا قد يؤجل إلى حين القراءة.

- إن الخطاب ينقطع بزوال لحظة التواصل، أما النص فمستمر ولو غاب متلقيه.

- إن الخطاب موجّه لمستمع معين ولا يتجاوزه إلى غيره أثناء التواصل، أما النص فقد يتعدى إلى مجموعة من المتلقين لديمومته واستمرارية الكتابة في كل زمان ومكان.

- إن الخطاب مقترن بالتلفظ الآني الذي يحمل دلالة معينة، تتفاعل معها الأطراف المجسّدة له أثناء التواصل في سياق محدد، يبرز نفسية وثقافة هذه الأطراف. أما النص فمتعلق بالملفوظ والكتابة، وهو يحتوي تلك الدلالة المعيّنة للخطاب؛ ولهذا رأى فان دايك أن النص يتضمن الخطاب، وإذا ما جُسِّد هذا النص في سياق تواصلي فإنه يعدّ خطابا.

الهوامـــش و المراجـــع

[1]- عثمان أبو الفتح ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1952، ج 01، ص 33.

[2] - د/ سعيد حسين بحري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط01، 1997، ص 02.

[3] - د/ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط01، 2000، ج01، ص26.

[4]- د/ محمد خان، لغة القران الكريم دراسة لسانية تطبيقية للجملة في سورة البقرة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين أمليلة، الجزائر، ط01، 2004، ص18.

[5]- د/ عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، مجلة المبرز، الجزائر، 1993، عدد02، ص08.

[6]- د/ محمد خان، لغة القران الكريم، ص 19.

[7]- ابن السراج، الأصول في النحو، تحقيق د/ عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان ، ط04، 1999، ج 01، ص 74.

8- ابن يعيش، شرح المفصل، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2001، ج01، ص21.

[9]- الرضي الأستراباذي، شرح كافية ابن الحاجب، تحقيق إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998، ج01، ص31.

[10]- المرجع نفسه، ص 32.

[11] - ينظر : - د/ صالح بلعيد، نظرية النظم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2002، ص 62إلى 66. و – ميلكا ايفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ترجمة د/ سعد عبد العزيز مصلوح و د/ وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، السعودية، ط02، 2000، ص 211 إلى 220.

[12]- د/ عبد الرحمن الحاج صالح، مدخل إلى علم اللسان الحديث، مجلة اللسانيات، الجزائر، 1972، مجلد 02، عدد 01، ص 53، هامش 104.

[13]- منذر عياشي، اللسانيات والدلالة "الكلمة "، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سوريا، ط 01، 1996، ص 131.

[14]- د/ ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط01، 1983، ص 252.

[15]- سليم بابا عمر وباني عميري، اللسانيات العامة الميسرة، أنوار، الجزائر، 1990، ص 87.

[16]- ميلكا إيفيتش، اتجاهات البحث اللساني، ص 278.

[17] - سليم بابا عمر وباني عميري، اللسانيات العامة الميسرة، ص 35.

[18]- المرجع نفسه، ص 36.

[19]- المرجع نفسه، ص 53.
[20]- المرجع نفسه، ص 53.
[21] -voir : E. Benveniste, Problémes de linguistique Générale, Edition Gallimard ,1966,P16.
[22]- د/ خولة طالب الإبراهيمي، مبادئ في اللسانيات العامة، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2000، ص159.
[23]- د/ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج 01، ص 23.
[24]- - د/ سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، منشورات المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، لبنان، 1989، ص17.
[25]- كاترين فوك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، تعريب د/ المنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص134.
[26]- د/ سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 19.
[27]- د/ محمد يحياتن، مفهوم الأصالة من وجهة نظر تحليل الخطاب، مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ديسمبر 1999، عدد 14، ص336.
[28]- د/ سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص19.
[29]- المرجع نفسه، ص 19.
[30]- د/ عبد الرحمن الحاج صالح، التحليل العلمي للنصوص بين علم الدلالة وعلم الأسلوب والبلاغة العربية، مجلة المبرز، الجزائر، 1996، عدد 06، ص 28.
[31]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ، ط03، 1994، مجلد 07، ص89/97، مادة (ن ص ص).
[32]- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (د ط)، (د ت)، جزء02، ص 320.
[33]- د/ عز الدين المناصرة، شهادة في شعرية الأمكنة، مجلة التبيين، الجاحظية، الجزائر،1990، عدد01، ص40.
[34]-د/ سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1989، ص11.
[35]- المرجع نفسه، ص 19.
[36]-د/ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج01، ص33.
[37]- د/ سعيد حسين بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط01، 1979، ص 113.
[38]- المرجع نفسه، ص 113.
[39]- د/ محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري إستراتيجية التناص، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط01، 1985، ص120.
[40]- كاترين فوك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ص138.
[41]- نقلا عن : - كاترين فوك، مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة، ص139/138.

و- د/ ميشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) "قراءات تمهيدية" المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، ط02، 1985، ص 86/85.

[42]- د/ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي، ج01، ص 32.

[43]- المرجع نفسه، ص 29.

[44]- د/ يوسف نور عوض، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، مصر، ط01، 1994، ص 84.

[45]- د/ محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1991،01، ص29.

[46]- د/ سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 16.

[47]- المرجع نفسه، ص 16.

[48]-ابن منظور، لسان العرب، مجلد01، ص361، مادة (خ ط ب).

[49]- سورة الفرقان، الآية 63.

[50]- سورة المؤمنون، الآية 27.

[51]- سورة ص، الآية 23.

[52]- سورة النبأ، الآية 37.

[53]- عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب "مقارنة لغوية تداولية"، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2004، ص35.

[54]- علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط02، 1986، ج01، ص136.

[55]- د/ سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 19.

[56]- المرجع نفسه، ص 19.

[57]- نور الدين السدّ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دار هومة، الجزائر،1997، ص11.

[58]- المرجع نفسه، ص31.

[59]- جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، مراجعة عبد الجليل ناظم، دار طوبقال للنشر، المغرب، ط02، 1997، ص13.

[60]- ك.م.نيوتن، نظرية الأدب في القرن العشرين، ترجمة عيسى على الكاعوب، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ط01 ، 1996، ص 132.

[61]- نور الدين السدّ، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ص 74.

[62]- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان ، ط01، 1998، ص 215.

[63]-R. Escarpit ,L'écrit et la communication , Paris: Puf (coll que sais –je ?) ,1978 ,P 29.